رسائل الخراز

ابو سعيد الخراز

؟ : ٢٨٦ هـ

د. كوركيس عواد

مباحث :

ابو سعيد ، احمد بن عيسى الخراز ، صوفي من أركان المدرسة البغدادية في التصوف التي ترأسها الجنيد والنوري والشبلي . قال عنه الخطيب البغدادي . كان أحد المذكورين بالورع والمراقبة وحسن الرعاية والمجاهدة [١] . وقال عنه أبو نعيم الاصفهاني : سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء [٢] أما أبو عبد الرحمن السلمي فيرى انه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء [٣] وانه ، احسن القوم كلاماً ما خلا الجنيد [٤] . وهو عند الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ « لسان التصوف » [٥] وقد عده فيمن نشر علوم الاشارة كتباً ورسائل . أما عبد الرحمن الجامي فيرى أنه « ماكان أحد فوق الخراز ، هو في غاية

(١) تاريخ بغداد ٤ / ٢٧٦ (٢) حلية الاولياء ١٠ / ٢٤٦

(٣) طبقات الصوفية ٢٢٨ (٤) شذرات الذهب ٢/١٩٢ (٥) التعرف ١١

الغايات ... [1] » .

لابي سعيد الخراز وجهة نظر في الشريعة تتفق على ظاهرها مع وجهات نظر المدارس الفقهية الاسلامية ولا تخلو من تعارض مع التستري والترمذي [2] وفي مسائل معينة تقرب كل القرب من الغنوصية الشيعية المتمثلة في الحروفيين [3] مات في القاهرة سنة ٢٨٦ هـ وفي موته أقوال تجدها عند الخطيب البغدادي [4] . بعد أن هاجر اليها من بغداد هرباً من غلام الخليل [5] الذي اتهم صوفية بغداد بالزندقة ، ولولا حكمة القاضي اسماعيل بن اسحاق لذاق صوفية بغداد ما ذاق الحلاج من بعد . ويبدو أن العيش في القاهرة قد راق للخراز لما وجده من أمن ومريدين فاستقر هناك ومعه استقرت تعاليمه في مدرسة أبي الحسين بن بنان الذي يقول فيه السلمي « صحب ابا سعيد الخراز واليه ينتمي » و « كان ابو الحسين يتواجد وأبو سعيد الخراز يصفق له » [6] . ويبدو ان هذه المحنة قد شتتت شمل صوفية بغداد ، فأبو سعيد الخراز رحل الى مصر ايام هذه المحنة [7] وأبو الحسين النوري اقام بالرقة سنين متخلياً عن الاينـاس [8] وابو حمزة البغدادي الصوفي وأبو بكر الدقاق أخـذا يسيحان في الأرض ولم ينجُ من التشريد الا الجنيد لانه « استتر بالفقه على مذهب أبي ثور » [9] والغريب أن مثير هذه المحنة هو غلام الخليل « وهو من اعلام صوفية بغداد » [10] اتهمهم فيها ، على ما روى ابن الجوزي ، بالزندقة لان أبا الحسين النوري قال « أنا اعشق الله والله يعشقني » [11] او على ما روى أبو عبد الرحمن السلمي « لأنهم يرفضون الشريعة » [12] ولعل ابن الجوزي

---

(١) نفحات الانس : ورقة ٤٤ أ

(٢) لمعرفة نقاط التعارض انظر : ماسينيون Essai 302 ff ; Passion 513

(٣) قارن الفتح ٨٩ (٤) تاريخ بغداد ٤ / ٢٧٨

(٥) تعرف هذه المحاكم بمحن الصوفية ، حلية ١٠ / ٢٤٩ ، احياء ٢ / ١٥٢ ، عوارف المعارف ١٧٩ ، سراج الملوك ١٥٥ ، تلبيس ابليس ١٧٢

(٦) طبقات الصوفية ٢٨٩ (٧) نفحات الانس ورقة ٤٤ أ (٨) حلية الاولياء ١٠ / ٢٤٩

(٩) تلبيس ابليس ١٧٢ (١٠) الفهرست ١٨٦

(١١) تلبيس ابليس ١٧٢ (١٢) آداب الصحبة وحسن العشرة ٤٧

الحنبلي وهو من أشد اعداء المتصوفة حماسة قد حرف قول النوري تهكما منه . فان المروى عن النوري ، أنه قال « انا احب الله والله يحبني » مقتبساً قوله تعالى « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويظهر أن غلام الخليل كان من المقربين للسلطة فان كثيراً من الروايات تصوره صاحب شرطة يطارد الصوفية ويتسقط زلاتهم بل ويتسبب في موتهم هلعاً [1] وحكايته مع سمنون المحب أعجب من تصوفه [2] .

حاول الخراز كغيره من صوفية بغداد التقريب بين التصوف الذي فقد سحره وطابعه الزهدي عند الناس وبين المذاهب الفقهية ، أو بالمصطلح الصوفي ، بين الشريعة والحقيقة ، قاصراً على أن ليس للشريعة وجهان : ظاهر وباطن وان « كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل » [3] اما صديقه الجنيد فيقول « الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ واتبع سننه ولزم طريقته » . [4] اما النوري فيوصي بعض اصحابه « من رأيته يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربن منه » [5] وأبو محمد الجريري ، تلميذ الجنيد ، يقول « رؤية الاصول باستعمال الفروع وتصحيح الفروع بمعارضة الاصول ولا سبيل الى مقام مشاهدة الاصول الا بتعظيم ما عظمه الله من الوسائط والفروع » [6] . بالرغم من هذا الاصرار على ان الحقيقة هي الشريعة اتجه صوفية بغداد بعد محاولات غلام الخليل ومقتل الحلاج الى نشر تعاليمهم بين خاصتهم بطرق سرية فاتخذوا « عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم » [7] وحرصوا كل الحرص على هذه السرية فالجنيد لا يقبل اكثر من عشرين مريداً

(١) قال غلام الخليل : رأيت فقيراً يعدو ويلتفت ويقول : أشهدكم على الله هو ذا يقتلني . . وسقط ميتاً . تلبيس ابليس ٢٦٣ . وقد وهم ابن الجوزي فظن قوله « أشهدكم على الله » بتخفيف الياء في على ويظهر أن الفقير هرب من غلام الخليل وسقط ميتا بالسكتة خوفا وهلعاً

(٢) انظر كشف المحجوب الترجمة الانكليزية ١٣٧

(٣) طبقات الصوفية ٢٢١ ، مناقب الابرار ورقة ١٥ أ .

(٤) طبقات الصوفية ١٥٩ (٥) حلية الاولياء ١٠ / ٢٥٢

(٦) طبقات الصوفية ٢٦٣ انظر كذلك تلبيس ابليس ١٦٧ (٧) التعرف ٨٠

في بيته حيث يقفل الباب ويضع المفتاح تحت وسادته [1] والخراز يؤلف كتاب الصدق للصوفية فقط وهو يحذرهم من ان يقع هذا الكتاب بيد من لا يفهم مقصوده[2]، ويخشى الجنيد أن يفصح في رسالة لصديق له لان رسالة له فتحت في اصبهان فأسيء فهمها [3] والنوري يخاطب الجنيد وقد رآه متصدراً احد المجالس « يا ابا القاسم ، لقد كتمت الحقيقة عن الناس فصدروك وأنا اخبرتهم بها فحصبوني »[4] ولعل مصدر هذه السرية في التعاليم يعود ـ على رأي السراج ـ الى كثرة المتشبهين بالصوفية وليسوا منهم فاتجهوا الى الانعزال غيرة منهم على التصوف [5] ، او لأنهم اشفقوا ان يفهم كلامهم على غير مدلوله . وهنا يؤكد الجنيد في رسالة لصديق له على مخاطبة الناس بما يعقلون فيقول « وبالخلق حاجة الى الرفق وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم بما لا يعرفون ولا مخاطبتهم بما لا يفهمون »[6] وفي مناسبة اخرى مع ابي بكر الشبلي كتب له « الله . . . الله في الخلق ! كنا نأخذ الكلمة فننشقها ونقرضها ونتكلم بها في السراديب وقد جئت انت فخلعت العذار [7] » . لهذه وغيره بالغ كتاب المتصوفة كالكلاباذي والسراج والمكي والسلمي والقشيري في محاولاتهم لبيان أن التصوف لا يعني فقط شدة العناية بالدين في ظواهره ورخصة بل مراعاة أحكام الشريعة بشدة دونها شدة التعصب ايضاً إذ إن التصوف هو الأخذ بالأحسن والاتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما امر الله به عباده واجتناباً لما نهاهم الله عنه وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات . ومع كل هذا الاصرار وهذا التحفظ فأركان مدرسة بغداد لم يسلموا من تهمة الزندقة والحلول . يروي ابن الجوزي نقلا من كتاب اللمع للسراج قوله : « وأنكر

---

(١) قوت القلوب ٢ / ٣٠ ، احياء ١ / ٤٢

(٢) انظر مقدمة ناشر الكتاب البرفسور آربري (٣) اللمع ٢٤٠

(٤) كشف المحجوب الترجمة الانكليزية ١٣١ : انظر قوله الآخر للجنيد : يا ابا القاسم غششتهم فاجلسوك على المنابر ونصحتهم فاجلسوني على المزابل التعرف ١١٢

(٥) اللمع ٣ « . . . كثر المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون الى الطريقة والمجيبون عنها وعن مسائلها وكل واحد يضيف الى نفسه كتاباً قد زخرفه وكلاماً قد تكلفه وجواباً قد الفه . . » .

(٦) اللمع ٢٤٠ (٧) اللمع ٢٣٤

جماعة من العلماء على أبي سعيد الخراز ونسبوه الى الكفر بألفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو كتاب السر ... وأبو العباس احمد بن عطاء نسب الى الكفر والزندقة وكم من مرة قد أخذ الجنيد مع علمه وشهد عليه بالكفر والزندقة وكذلك اكثرهم [1].

لا يخلو كتاب في التصوف من قول للخراز أو رواية رويت عنه ، ومع أن كثيراً من المصادر قد ترجمت له فنحن لا نجد شيئاً عن حياته الأولى ولا عن حياته بأية صورة وبالرغم من كثرة هذه النقول والروايات فالظلام يكتنف شخصية الخراز . بيد أن هذه الشذرات المبعثرة إن لم تفدنا في استجلاء الغامض من حياته فانها تلقي ضوءاً على علاقاته بصوفية عصره في شتى اقطار العالم الاسلامي إذ ذاك .

تحدثنا المصادر ان ابا سعيد الخراز كان دائم التجوال كثير السياحة فيذكر أبو عبدالرحمن السلمي أنه « كان يسافر مع أبي تراب النخشبي وابي حمزة الخراساني [2] . وابو نصر السراج يروي لنا أن الخراز قال « ذكر لي أبو حاتم العطار وفضله وكان بالبصرة فرحلت اليه من مصر » [3] . وابن خميس الكعبي يروى « قال أبو القاسم بن مروان النهاوندي قال : كنت أنا وأبو بكر الوراق مع أبي سعيد الخراز نمشي على ساحل البحر نحو صيدا » [4] والقشيري ينقل عن السلمي « أن يوسف بن الحسين الرازي رافق الخراز » [5] وروايات اخر تصوره مرة في الرملة ومرة في القدس ومرات في البادية ومرات سائحاً بين مكة والعراق كل هذه الروايات تقودنا إلى حقيقة مدرسة بغداد في التصوف ، فمن اعضائها من كان دائم السياحة كثير التجوال كابي حمزة والنوري وابن عطاء والخراز ومنهم من آثر الاقامة على السفر كالمحاسبي والجنيد والسري السقطي ومنهم من سافر في ابتداء امورهم في حال ابتداء شبابهم ... ثم قعدوا عن السفر في آخر احوالهم كالشبلي » [6] .

الشيء الوحيد الذي يتصل بحياته في بغداد هو النسبة التي يحملها ، هذه النسبة الى خرز

(١) تلبيس ابليس ١٦٩ (٢) طبقات الصوفية ٢٢٧ (٣) اللمع ١٨٠
(٤) مناقب الابرار (ورقة ١٦ ب) . (٥) الرسالة القشيرية ٢٤
(٦) الرسالة القشيرية ١٣٠

الجلود كالقرب والسطائح وغيرها »[1] كما يقول ابن الاثير فيكون قد تعلمها ليكسب قوت يومه أو ليشغل نفسه التي شغلته كما يقول الخراز نفسه فهو قد تعلم خرز الجلود وخرز الأخفاف . يروي أبو نصر السراج انه « خرج في سنة من السنين من الشام الى مكة مع القافلة فجلس الى الصباح يخرز نعال اصحابه من الفقراء والصوفية »[2] وذكر ابن تغري بردي ان الجنيد قال : « لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخراز لهلكنا . فقيل له : وايش كان حاله ؟ قال : اقام كذا وكذا سنة يخرز ، ما فاته ذكر الحق بين الخرزتين »[3] . فابو سعيد كان خرازاً : أي حذاءاً او اسكافاً لا كما فهم الدكتور علي حسن عبدالقادر[4] فقال: إنه كان نساجاً اذ يروي عبدالرحمن الجامي انه « كان يخرز الخف ويفكه ، فقيل له ، ماهذا ؟ قال : اشغل نفسي قبل ان تشغلني »[5]. اما الجوانب الاخرى من حياته فهي مجهولة ولم استطع أن اعثر فيما تيسر لي من المصادر على ذكر لمولده ، لعائلته أو لدراسته وقد اكتفى السلمي بقوله « وهو من أهل بغداد »[6] ، أو « بغدادي الأصل »[7] ، وكل ما ذكر عن دراسته « انه كان تلميذاً لمحمد بن منصور الطوسي »[8] و « حدث عن ابراهيم بن بشار صاحب إبراهيم بن ادهم »[9] و « صحب ذا النون المصري وابا عبيد البسري والسري السقطي وبشراً الحافي »[10] و وزاد السلمي « وابا عبيد الله النباجي »[11] . ومن تلاميذه أبو القاسم

(١) اللباب في تهذيب الانساب ١ / ٣٥٢ انظر كذلك تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ٣٣٠ .

(٢) اللمع ١٩٦ (٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦ .

(٤) انظر كتابه عن الجنيد بالفارسية الاسكندرية ص ٤١ وفي الكتاب اخطاء وهنات في مواضع متعددة منه .

(٥) نفحات الانس ورقة ٤٤ أ . (٦) طبقات الصوفية ٢٢٨ .

(٧) شذرات الذهب نقلا من تاريخ الصوفية الضائع ٢ / ١٩٢ .

(٨) نفحات الانس ورقة ٤٤ أ . انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٣ / ٢٤٢ .

(٩) المنتظم ٥ / ١٠٥ انظر ترجمة ابراهيم بن بشار في تاريخ بغداد ٦ / ٤٢ وروايات الخراز عنه وعن غيره في طبقات السلمي ٢٨ ، ٣٥ .

(١٠) نفحات الانس ورقة ٤٤ أ . (١١) طبقات الصوفية ٢٢٨ .

ابن مروان وقد صحبه اربع عشرة سنة [1] ، وعلي بن محمد المصري [2] وقد روى عنه . وقد انفرد الخطيب البغدادي برواية ، ان من جملة تلامذة الخراز تلميذة كانت تسمع منه من وراء ستر لم يشأ أن يذكر لنا اسمها [3] . وتضيف بعض المصادر أن ابراهيم بن سعد العلوي صحب الخراز في سياحاته [4] ، وانحدر لنا في بعض الروايات انه كان متزوجاً وله ابن صوفي مات قبله أســـدى لوالده النصح في منام [5] فالخراز لم يوافق آراء بعض صوفية بغداد في الامتناع عن الزواج .

الفناء والبقاء عند الخراز :

يكاد يجمع كل من ترجم لأبي سعيد الخراز على رواية واحدة وهي « انه اول من تكلم في علم الفناء والبقاء » أو « سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء » فما معنى الفناء والبقاء ؟ يحدثنا أبو بكر الكلاباذي المتوفي سنة ٣٨٠ هـ ان الفناء هو « ان تفنى الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز ، وهو فناء عن الاشياء كلها شغلا بما فني به ... والحق يتولى تصريفه فيصرفه في طائفــه وموافقاته فيكون محفوظا فيما لله عليه مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له اليها سبيل وهو العصمة ... والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله » [6] ولو تقصينا النذرات المبعثرة لأقوال الخراز في كتب الصوفية لوجدنا أنهم التزموا الحذر والحيطة في اختيار ما لا يساء فهمه خذ مثلا

(١) تاريخ بغداد ٤ / ٢٢٨ سماه ابن وردان وفي مكان آخر سماه ابن مروان ٤ / ٤٠٠ والقشيري والسراج يسميانه ابن مروان الشهاوندي ، الرسالة ١٢٧ ، اللمع ٢٨٨ وابن خميس الكتبي يسميه : ابن مردان ورقة ٢١٢ ب انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٠ / ٤٠٠

(٢) المنتظم ٥ / ١٠٥ انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٢ / ٧٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٤ / ٢٢٢

(٤) كشف المحجوب فالترجمة الانكليزية ٣٦٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ٨٦ .

(٥) طبقات الشعراني ١/١٠٢ وذكر ابن الأثير ولده سعيد في انه سـأل والده ان يعلمه دائماً فقال : لو أحب أبوك أن يركب الملائك الى بابه لما تابوا عليه (البداية والنهاية ١١/٥٨) .

(٦) التعرف ٩٢

السراج الطوسي فانه أورد كثيراً من اقوال الخراز منها قوله في الفناء : « أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء ورد جميع الأشياء الى متوليها حتى يكون المتولي بالمتولي ناظراً الى الاشياء قائماً بها متمكناً فيها ثم يخفيهم في انفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم في أنفسهم ويصطنعهم لنفسه فهذا اول دخول في التوحيد من حيث ظهور الديمومية »[1] ويحاول السراج بما أوتي من قدرة منطقيه فقهية ان يقنع القارىء أن مراد الخراز يختلف عما تعنيه الفاظه فيستعمل الشرح الطويل فينفي تهمة الالحاد عنه ، والكلاباذي يورد قوله في الجمع : « الجمع أنه أوجدهم نفسه في نفسه بل أعدمهم وجوده لانفسهم عند وجودهم له »[2] وقولا الخراز يبينان بصراحة رأي الخراز في الفناء والبقاء الذي سنأتي اليه بعد قليل .

الصوفي يعتقد أنه اختير ليكون صوفياً والا لأصبح الناس كلهم صوفية وان الحق اختاره من خلقه لتحمل الاعباء والمجاهدات وقد لا يسبق هذا الاختيار مقدمات اذ ليس كل عابد موغل في العبادة مؤهلا للاختيار فقد يصبح المغني صوفياً والنصراني من الأبدال وقد يتسلق ابن العامة خطوات الطريق ليصل الى مرتبة الاوتاد دون ان يكلف نفسه عناء الطريق . . اذ تلك مشيئة الاختيار ، ومع اعترافهم بهذا فقد اصطلحوا على خطوات اختلفوا في عددها واسمائها سموها (المقامات) وعلى حالات شعورية الهامية سموها (الأحوال) ، فاذا ما اصطنع الحق انساناً لنفسه حرك الشوق الية في قلبه فيمتلىء بالحب ، وهنا أول الطريق ، ولان « المحبة ميل القلوب »[3] فانها توجب الشوق والشوق يوجب الانس ومن فقد الشوق والانس فهو غير محب[4] ، ويحلو للخراز أن يصطنع الحب كأساً يذوق نعيم المشاهدة فيقول « طوبى لمن شرب كأساً من محبته وذاق نعيما من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملىء قلبه حباً وطار بالله طرباً وهام اليه اشتياقا ، فياله من وامق

(١) اللمع ٢٧٠ وانظر تفسير السراج ٣٣ ـ ٣٤ . (٢) التعرف ٩٠

(٣) التعرف ٧٩

(٤) القول للواسطي صديق الخراز انظره في طبقات الصوفية ٣٠٣

أسف ، وربه كلف دنف ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه »[1] فاذا كان الشوق يوجب الانس فانه من وجد الانس ينعم بالمشاهدة « فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه مادونه وتلاشى كل شيء وغاب عنه وجود عظمة الله تعالى ولم يبق في القلب الا الله عز وجل »[2] وفي مناسبة اخرى يكرر الخراز قوله السابق فيقول « فاذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى » .

الحسين بن منصور الحلاج قد قتل شر قتلة في بغداد لأمور ربطها بعض المستشرقين وبعض المؤرخين بالسياسة واسهام الحلاج في الدعوات السرية[3] لانه فاه بقولته المشهورة « أنا الحق » ويبدو أن الخراز قد رأى بعين الغيب مصير الحلاج على الخشبة فاشفق على نفسه فعمّى اقواله والا فانه قد قال ما قاله الحلاج لا على لسانه بل على لسان صوفي مستغرق مستهلك من غلبة الحقيقة عليه : « ولو قيل له ما انت لم يكن له جواب من غلبة أقدار الله عليه أن يقول أنا »[4] ولكنه يأبى الا التصريح الخافت فيقول : « وبعد كل ما ذكرته لك غير ما أردته ولا اعرفه ولا ادري ما اريد ولا ما اقول ولا ادري من انا ولا من اين انا فهل تعرف ايها المستمع ما اقول ... »[5] وقبل مقتل الحلاج بعشرين سنة يكتب الخراز : « هو عبد قد ضاع اسمه فلا اسم له وجهول فلا علم له وعالم فلا جهل له ثم قال : وا شوقاه الى من يعرف ما اقول ويدخل معي فيما أقول .. » (المخطوط)

وجاء الحلاج فباح بالسر الذي كتمه الخراز ولم يستطع الشبلي الا ان يصرخ بوجه الحلاج وهو على الخشبة « الم انهك عن العالمين »[6] واكتفى على حين يصر صديق الخراز أبو العباس بن عطاء الأدمي على موافقته للحلاج فيأمر الوزير حامد بن العباس بعقاب الصوفي الكبير فينتزع خفه وينهال على شدقيه بالضرب حتى يسيل الدم من منخره ويكون

(١) اللمع ٥٩ ، ٦٤ (٢) اللمع ٦٨

(٣) Nicholson. The Idea of Personality in Sufism, P 11 ترجمها أبو العلا عفيفي في كتاب « في التصوف الاسلامي ١٣١ » انظر البداية والنهاية ١١/١٢٩ ، ١٣١ .

(٤ و ٥) ورقة ٦٠ أ من كتاب الصفاء (٦) البداية والنهاية ١١/١٣٢

هذا العقاب سبباً في موته . ويدعو الصوفي الكبير على الوزير بأن تقطع يداه ورجلاه ويقتل شر قتله ويحدث أن تتحقق دعوة الأدمي [1] . وكأن الخراز اتعظ بقول الشبلي تلميذ صديقه الجنيد « المحب اذا سكت هلك والعارف اذا لم يسكت هلك » [2] فسلم من القتل لأنه سكت وهلك الحلاج لأنه لم يسكت والا فأين الحدود بين قول الخراز : « افتطعه قرب الله من ذكر الله فهو مع الله بلا وجود ، ذكر فلم يجد الفهم مدخلا فيما بين الله وبينه فاستلبه الهجوم على الله عز وجل عن وجود الله فسقط العبد وبقى الله عز وجل ؛ فالحالات منه بائنة وعنه واقفة » ... « ورد من الحقيقة على الحقيقة ثم ورد من الله على الله فلم يكن فيه فضل من الله لله » . (المخطوط : كتاب الصفاء) وبين قول الحلاج السابق فاذا كان فهم الناس لصرخة الحلاج « انا الحق » قد قصر عن ادراك ما اراد الحلاج فلأنهم لم ينتفعوا ويذهلوا ولم يتعلقوا بنياط عرى التوحيد ولم يعبروا الى نسيان العلم الذي تكنه الصدور وتحويه العقول وتجنه الفهوم [3] ، فما احرى بهذا الفهم أن يعجز عن ادراك مراد الخراز .

الاستغراق في الفناء هو أشهى ما يتمنى الصوفية لان الصلة بينهم وبين العالم الحسي المادي تُعدم واذا عُدمت الصلة قربوا من الله عز وجل « وصار الفهم عنه غذاءهم ومجالسته ومحادثته أنيسهم ... » فاذا رجعوا الى عوالم المادة والحس ازداد حنينهم وكثر توجعهم لما فقدوه لأن الصوفي أنذاك قد « رأى من لم يره وسمع من كلام الله ما ليس له به عهد فيغلبه ذلك ... » . والصوفي هنا غريق التوحيد لا يدري ما الشريعة ولا الدين ولا يعرف رسماً من رسوم الظاهر فهو ابداً وله مستغرق فاذا دامت هذه الحال عند الصوفي فهي حال البقاء في الله بعد الفناء عن النفس . ومهما حاول كتاب الصوفية لاقناعنا بسرد حكايات عن صوفية عادوا إلى إحساسهم السوي عند الفرائض واذا ما ادوها عادوا [4] إلى الاستغراق

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٤

(٢) كتاب السر في انفاس الصوفية المنسوب للجنيد دار الكتب المصرية برقم ٧٨ ورقة ٧ أ

(٣) المخطوط ـ كتاب الصفاء

(٤) انظر كتاب التعرف ص ٩٦ الرسالة القشيرية ص ٣٩

فان الخراز يقرر أن « المقرب على الحقيقة كأنه منظور اليه فهو مطلوب معلق لا علم له ولا فهم ولا ارادة ولا حس ولا حركة .. » وهذا اقصى درجات الاستغراق وهو ما يسمى عند الصوفية بالجمع وهذا مقام المعرفة فانه « من لا جمع له فلا معرفة له » (الرسالة القشيرية ص ٣٥) ومن الجمع ينقل الصوفي إلى جمع الجمع وهو كما يروى القشيري « الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة » (ص ٣٦) ويقول الخراز في الجمع « إنه أوجدهم نفسه في أنفسهم بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له » [1] . من هذا نخلص الى أن الجمع عند الصوفية يعني الفناء عند الخراز وجمع الجمع يعني البقاء عند الخراز « فالفناء هو ان تفنى عنه الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حفظ ويسقط عنه التمييز .. » والبقاء هو الذي يعقب الفناء وهو « أن يفنى عما له ويبقى بما لله » . ويذكر الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ان فناء الصوفي لا يمنعه عن فرضه . « ومن ثم تصير الاشياء كلها له شيئاً واحداً فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته فيكون فانياً عن المخالفات باقياً بالموافقات » [2] والكلاباذي لا يجد ضيراً في ايراد قول ابي سعيد الخراز في الفناء « علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة الا من الله تعالى ، ثم يبدو له باد من قدرة الله تعالى فيريه ذهاب حظه من الله تعالى إجلالا لله ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ويبقى ما كان من الله لله ويتفرد الواحد الصمد في احديته (وفي نسخة أخرى من التعرف : أبديته) فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء » [3] ولكنه ككل كاتب صوفي اعتذاري يحاول تلفيق العذر لتبرئة الخراز فيفسر قوله تفسيراً فقهياً فاذا ما جاء الى قوله (ويبقى ما كان لله ويتفرد الواحد الصمد في أحديته فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء) يغفل ذلك وينتقل الى عبارة اخرى في الفناء [4] لا جهلا بعبارة الخراز ولكنه الحذر من ألسنة الفقهاء ومتعصبة الحنابلة ، والغريب ان كل محاولات الكلاباذي والسراج وابي طالب المكي والسلمي والقشيري لم تنفع

(١) التعرف للكلاباذي ص ٩٠ (٢) نفس المصدر ص ٩٢ — ٩٣
(٣) نفس المصدر ص ٩٥ (٤) انظر التعرف ، ص ٩٥ سطر ٨

في دفع تهمة الزندقة والحلول عن الخراز [1] وأضرابه من صوفية بغداد وقد ذكرنا امثلة في صفحة سابقة .

وقد اختلف صوفية بغداد في الفاني أيرد إلى بقاء الاوصاف أم لا يرد ؟ فمن قائل ان الفاني يرد لأن حالة الفناء (الجمع) لا تكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات ، ومن هؤلاء القائلين برد الاوصاف أبو العباس بن عطاء الأدمي الذي «كان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه » والذي قال فيه « التصوف خلق وليس إنابة ، وما رأيت من أهله الا الجنيد وابن عطاء » [2] فانه يؤلف كتاباً في ذلك سماه عود الصفات وبدئها [3] ولكن أكثر صوفية بغداد كالجنيد والخراز والشبلي لا يرون رد الفاني الى بقاء الاوصاف [4] واكبر سند لقول السكلاباذي ما هو موجود في كتاب الصفاء وكتاب الضياء اللذين نحن بسبيل عرضهما مع كتب اخرى للخراز .

قصة المخطوط :

كان مقرراً لهذا المخطوط أن يرى النور على يد البروفسور آرثر جون آربري ، رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة كمبرج في انكلترا ولكن شاء القدر ان يصاب الاستاذ الكبير بمرض أبعده عن مواصلة الدرس . فكان أن عرض عليّ تحقيق المخطوط على ان يكتب له مقدمة ضافية عن الخراز ولكنه اقترح على بعد مدة طويلة أشرفت في خلالها على إنهاء التحقيق وضبط النص أن اقوم بالعمل وحدي فاستخرت الله وارجو ان اكون قد وفقت . فلاستاذي الكريم كل شكري وامتناني على ما قدمه لي أيام كنت ادرس على يديه .

---

(١) انظر السكلاباذي ص ٩٢ ـ ١٠٠ ، السراج ٣٧٥ ـ ٤٠٢ بالخصوص شرح كلام الشبلي وانظر القسم الضائع من القلم الذي يروي بعضه ابن الجوزي في تلبيس ابليس عن تهمة الزندقة التي وجهت للخراز ص ١٦٩ وكذلك تذكرة الأولياء . باب ٤٥ ص ٤٠

(٢) السلمي ص ٢٦٥ (٣) السكلاباذي ص ٩٦

(٤) نفس المصدر والصفحة

المخطوط بالأصل محفوظ في مكتبة قسطموني العامة ، بتركيا تحت رقم ٢٧١٣ مجموعة ويقع ضمن مجموعة من رسائل في التصوف للترمذي وابن الوزان والقشيري وغيرهم ويبدأ من ورقة ٥٧ ب وينتهي في ورقة ٨٧ ب . وهو أول مخطوط وصفه الاستاذ أحمد آتش ـ رحمه الله ـ عند وصفه مخطوطات المكتبة [1] . وفي سنة ١٩٥٤ صورته البعثة التي أرسلها المعهد الهندي لتصوير نوادر المخطوطات في تركيا وهو محفوظ تحت رقم Reel 289 حسب الترتيب التالي : ـ

كتاب الصفاء	ورقة	٥٧ ب — ٦٢ أ
كتاب الضياء	»	٦٢ ب — ٦٤ أ
كتاب الكشف والبيان	»	٦٤ ب — ٧٠ ب
كتاب الفراغ	»	٧١ ب — ٧٨ أ
كتاب الحقائق	»	٧٨ ب — ٨٧ ب

وبحكم كون البروفسور آربري أميناً لمكتبة المعهد الهندي آنذاك فقد اطلع عليه ونوى نشره فاستنسخ صورة فوتوغرافية لنفسه تفضل فاهداها إليّ .

تحتوي المخطوطة على جزئين ، الجزء الأول ويحتوي على كتاب الصفاء [2] وكتاب الضياء وكتاب الكشف والبيان وفي منتصف الورقة ٥٧ ب كتب « الجزء الأول من كلام الشيخ ابي سعيد الخراز رحمه الله في علم الاشارات وفيه من الكتب ... » وذكر الكتب الثلاثة . وفي ورقة ٧١ أ كتب « الجزء الثاني من كلام الشيخ ... وفيه من الكتب : كتاب الفراغ ، وكتاب الحقائق ... » والمخطوطة المعروفة حتى الآن مخطوطة وحيدة في تركيا مسطرتها ١٧ مكتوبة بخط تعليق قديم غير منقوط في أكثر المواضيع وقد عملت الرطوبة على طمس غير قليل من كلماتها ، ولم يذكر اسم ناسخها الا أن الناسخ ذكر انه استنسخها

(١) Ahmed Ateş, Kastamonü Genel Kitapliginda Gulunan bazi Mühim Arapca ve Farsca yasmalan, in Orieus, V. Leiden 1952 PP. 28–31

(٢) في الأصل : الصفات

سنة ٦١٥ هـ وقابلها « حسب الطاقة بالأم » (ورقة ٢٠٨ ب من المجموعة) . لذلك فهي قد استنسخت إمّا عن نسخة الخراز نفسه وإمّا عن نسخة من نسخة الخراز . ومع أن الناسخ حاول رسم كثير من كلماتها فقد استدرك على الحاشية كثيراً من هذه الكلمات التي لم تسكن على ما يبدو واضحة عند انتهائه من الاستنساخ ، ولعله قد عثر على النسخة الخرازية فاثبت الاستدراك حين المقابلة ومع هذا الجهد فالمخطوطة لم تخل من هنات أشرت إليها في مكانها .

المخطوطة فريدة في نوعها وطريفة في بابها : فريدة لأنها وحيدة وهذا اكتشاف يضاف إلى المكتبة الصوفية لاستكمال جوانب دراسة المنحى الشخصي للمدرسة البغدادية في التصوف عموماً وهي إلى ذلك تلقي ضوءاً على مذهب ابي سعيد الخراز في الفناء والبقاء .

وهي طريفة في بابها لأن الخراز يرد في أحد اقسامها (كتاب الكشف والبيان) على من قال بأن مقام الأولياء ارفع من مقام الأنبياء . والمعروف عند دارسي التصوف ان من جملة كتب ابي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي المعاصر للخراز كتاباً اسمه ختم الاولياء وهو الذي نشر في مجلة المشرق تباعاً ونشر مستقلا مؤخرا .

يروي الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ [1] عن أبي عبدالرحمن السلمي « ان الترمذي نفي من ترمذ بسبب كتابين اتهما بها « ختم الولاية وعلل الشريعة » ولأنه كان يذهب الى أن للاولياء خاتما كما كان للانبياء خاتم فقالوا انه فضل الولاية على النبوة واحتج بقول رسول الله ﷺ « يغبطهم النبيون والشهداء » وقال « لو لم يكونوا أفضل لما غبطوهم » . وفي كتاب الكشف والبيان يرد الخراز على الترمذي دون أن يصرح باسمه فيقول « أما بعد : فان قوماً من اهل التصوف غلطوا في التمييز بين مقام الأنبياء فجعلوا مقام الأولياء ارفع من مقام الانبياء وإنما ذلك بسبب حجابهم عن عين الحقيقة ... » ويذكر الذهبي أن الترمذي رحل إلى بلخ فأكرموه لموافقته لهم في المذهب وانه رحل الى نيسابور سنة

(١) تذكرة الحفاظ ٢/١٩٧

خمس وثمانين ومائتين . هـــذه الرواية تدلنا على أمرين الأول : ان الخراز كتب كتاب الكشف والبيان قبل سنة ٢٨٥ هـ ولعله كتبه في سنة ٢٨٤ هـ لأنه من المعقول ان يبقى الترمذي بضعة اشهر في بلخ ومن ثم يرحل الى نيسابور .

الثاني : ان الخراز مات بعد سنة ٢٨٥ هـ ، هذه الرواية تؤيد رواية تلميذه أبي القاسم ابن مروان النهاوندي التي رواها الخطيب البغدادي وهي على ذلك أصح الروايات التي رويت في وفاته [١] ولو رجعنا الى كتاب ختم الاولياء لوجـــدنا ان الترمذي يقول : « ثم انهم يروون من الأخبار عن رسول الله ـ ﷺ ـ ان لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون والشهداء لقربهم ومكانهم من الله ... قال قائل : أفليس في هذه الأخبار ما يدل على تفضيل من دون الأنبياء على الانبياء ؟ قال معاذ الله أن يكون كذلك ، ليس لأحد أن يفضل على الأنبياء ... الأنبياء لهم نبوتهم وعلمهم . قال : فلم يغبطهم النبيون وليسوا بأفضل منهم ؟ قال : قد تبين ذلك في الخبر لم ذلك : لقربهم ومكانهم من الله » [٢] فالترمذي في كلامه هنا لايحملنا على تصديق التهمة التي رماها بها أهل ترمذ لأنه لايقول ذلك بصراحة . فلو فرضنا أن أهل ترمذ لم يفهموا مُراد الترمذي لأنهم ليسوا صوفية فما بال الخراز وهو صوفي من كبارهم مضافاً إلى ذلك أنه معاصر للترمذي ، أرى أن يد صوفي متستر توغلت في كتاب ختم الأولياء فأضافت اليه ما أضافت وجعلت من التهمة سهاماً ترد الى نحور المتهمين ، لأنه من المستبعد أن يرد الخراز على قول الترمذي هذا الذي لايحمل معنى التفضيل وأن مقارنة سريعة بين كتاب الكشف والبيان وكتاب ختم الأولياء نجد الخطوط واضحة جلية في أن مراد الخراز كان رداً على الترمذي ونقطة أخرى ان الهجوري [٣] نسب للترمذي فرقة من الصوفية سماها الحكيمية . خصها بفصل كامل من كتابة يقول فيها إنهم اتباع أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي وان مأخذ قولها في الولاية منه . وكما خص الترمذي بفرقة

(١) تاريخ بغداد ٤/٢٧٨

(٢) مخطوط ولي الدين برقم ٧٢٠ ورقة ١١٣ ب

(٣) كشف المحجوب انظر من ص ٢١٠ الى ٢٤١ الطبعة الانكليزية ، ترجمة نيكلسون

صوفية فالهجويري نسب للخراز فرقة صوفية أيضاً سماها « الخرازية » قالت بقول الخراز في الفناء والبقاء ؛ وعقد لذلك فصلاً كاملاً للتوفيق بين مفهوم المصطلحين دون أن يمس مفهوم المصطلحين [1] . من كل ذلك نستطيع أن نستخلص الحقيقة التالية : أن كتاب ختم الأولياء الذي في أيدينا ليس هو الذي كتبه الترمذي وانما قد أدخل فيه ما أدخل لنفي تهمة تفضيله الأولياء على الانبياء والا فاسم الكتاب يكفي في الدلالة على فحواه .

كتب الخراز :

كتب الخراز كتباً كثيرة ضاعت كلها ولم يبق منها إلا كتاب الصدق الذي نشره البرفسور آربري في كلكتا سنة ١٩٣٧ مع مقدمة قصيرة عن الخراز لم يتسن لي الاستفادة منها حين كتابتي هذه المقدمة ، إلا أني أذكر أنه أشار الى دراسة ماسينون عن الخراز التي سوف أضمنها مقالتي القابلة عن المنحى الشخصي للخراز وقد أعاد الدكتور عبد الحليم محمود طبع الكتاب باسم « الطريق الى الله أو كتاب الصدق » بتحقيق سقيم ومقدمة عن الخراز أسقم منه .

وكتاب المسائل وهو يحتوي على مجموعة من الأحاديث في التصوف التي رواها باسناده [2] .

وهذا الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه . وهناك كتب أخرى لم يبق منها إلا الاسم ذكرها مؤرخو التصوف وهي :

١) كتاب رؤية القلوب ذكره الكلاباذي ص ٢١ وذكره السراج ص ٤٢٨ .

٢) كتاب آداب الصلاة ذكره السراج واقتبس الكثير منه ص ١٥٣ .

٣) كتاب الوصايا أو ربما هكذا كان اسمه اقتبس السراج منه جملة وصايا ص ٢٦٤ .

٤) كتاب درجات المريدين : اقتبس منه السلمي في حقائق التفسير ورقة ٢ ب مخطوط كوبرلي برقم ٢٦١ ما يلي :

(١) انظر كشف المحجوب من ص ٢٤١ – ٢٤٦ الطبعة الانكليزية

(٢) ما زال مخطوطاً في مكتبة شهيد علي بتركيا تحت رقم ١٣٧٤

« ومنهم من جاوز حد نسيان حظوظ نفسه فوقع في نسيان حظه من الله ونسيان حاجته إلى الله فهو يقول : لا أدري ما أريد وما أقوله وما أنا ومن أين أنا ، ضاع اسمي فلا اسم لي وجهلت فلا علم لي وعلمت فلا جهل لي واشوقاه إلى من يعرف ما أقول فيساعدني فيما أقول وإذا قيل لأحدهم ما تريد قال : الله وما علمت قال الله فلو تكلمت جوارحه لقالت الله وأعضاؤه ومفاصله ممتلئة من نور الله المخزون عنده ، ثم يصيرون في القرب الى غاية لايقدر أحدهم أن يقول الله لأنه ورد من الحقيقة على الحقيقة ومن الله على الله ولا حيرة (ورقة ٢ ب) .

٥) كتاب السر ذكره ابن الجوزي نقلاً عن السراج : ولما كان كتاب اللمع الذي نشره المستشرق نيكلسون ناقصاً فانه يتبادر الى الذهن ان السراج قد ذكره في القسم الضائع [1] قال ابن الجوزي : قال السراج وانكر جماعة من العلماء على أبي سعيد ، أحمد ابن عيسى الخراز ونسبوه الى الكفر بألفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو كتاب السر ومنه قوله « عبد طائع ما اذن له فلزم التعظيم لله فقدّس الله نفسه » [2] بيد أن السراج يذكر قولاً مشابهاً لما أورده ابن الجوزي دون أن يذكر اسم الكتاب او التهمة التي وجهت للخراز فيقول « قال أبو سعيد الخراز رحمه الله عبد رجع الى الله عز وجل فتعلق بالله وركد في قرب الله فقد نسي ما سوى الله تعالى ، فلو قلت له من أنت والى اين ؟ لم يكن له جواب غير ان يقول الله لأنه لايعرف سوى الله تعالى لما قد وجد في قلبه من التعظيم لله عز وجل » [3] وكثيراً ما يورد السراج قول صوفي في مكان ويعيده في مكان آخر مضيفاً اليه [4] فلربما ذكره في القسم الضائع .

وذكره فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء ولعله نقله من اللمع قال :

« واورا بكفر منسوب كردند به بعضي الفاظ كه در تصانيف اوديدند وآن كتاب كتاب السر نام كرده جود ، معنى آن فهم نكردند يكي اين بود كه گفته بود : ان عبدا رجع

(١) انظر اللمع ص ٤٠٧ حيث ذكر نيكلسون ان ستة فصول سقطت من كتاب اللمع ولم يستطع العثور عليها (٢) تلبيس ابليس ص ١٦٩ (٣) اللمع ٢٦٠

(٤) انظر مثلا الصفحات ٥٩ ، ٦٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ في حكايات عن الخراز

الى الله وتعلق بالله وسكن في قرب الله قد نسي نفسه وما سوى الله فلو قلت له من اين انت وايش تريد لم يكن له جواب غير الله [1] .

قلنا إن ابن الجوزي كان شديد الوطأة على الصوفية فربما نقص من النص الذي أورده السراج فان مقارنة بسيطة بين نص السراج وابن الجوزي تظهر أن قول الخراز محرف مبتور من جوانب كثيرة ومع هذا فرواية ابن الجوزي تفيدنا في إثبات أن كتاب السر هو من تأليف أبي سعيد الخراز . ورواية فريد الدين العطار تؤيد رواية ابن الجوزي في أصالة الكتاب ومن ثم تقوى زعمنا في أن السراج ذكر الكتاب في القسم الضائع من كتاب اللمع [2] .

مسألة أخرى لا تقل أهمية عن نسبة الكتاب للخراز وهي أن المخطوط يحمل اسماً هو « الجزء الأول من كلام الشيخ أبي سعيد الخراز في علم الاشارات وفيه من الكتب كتاب الفراغ وكتاب الحقائق » وأبو عبد الرحمن السلمي نقل من كتاب للخراز سماه درجات المريدين والسراج وابن الجوزي والعطار نقلوا من كتاب سموه كتاب السر . ولو قارنا النصوص التي نقلوها من هذين الكتابين مع نص كتاب الصفاء لوجدناها منقولة بالنص من أماكن متعددة من الكتاب أفيكون اسم الكتاب : درجات المريدين أم كتاب السر ؟! هذا ما سوف أوضحه في مقالة قابلة إن شاء الله عن المنحى الشخصي لشخصية الخراز بين صوفية المدرسة البغدادية .

(١) نشر المستشرق نيكلسون ج ٢ ص ٤٠ وقد ذكر ماسينيون انه بالاضافة الى ذكر العطار له فابن الجوزي قد ذكره في كتابه « التلبيس .. » انظر ص ٦٢٦ ... Essai وانظر كذلك كتاب روزبهان بقلي « شرح شطحيات » نشر هنري كوربن ص ١٢٩ .

(٢) بعد كتابة هذا المقال ونشره الى المطبعة ذكر لي الاستاذ نور الدين الواعظ ان كتاب اللمع نشر في مصر كاملا وأراني نسخة منه وقد وجدت فيه ما سبق ان افترضته ، فللاخ الواعظ جزيل شكري وامتناني .